الرواية التمثيلية العربية [1]

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم أن المدنية الغربية نفثت فى حياتنا الجميلة الطاهرة ، الرائعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين ، روح فسق وخلاعة وكفر . وتغنى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا — هيا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب :

أما نحن فنرى الأفضل أن نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء تاركين لهم حق تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس اذا أرادوا ، بشرط أن لا يعارضونا اذا تجاسرنا أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا

ما تعوّد البعض أن يدعوه « نهضة أدبية » عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق الآداب الغربية ، فدبت فى مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية فى أعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل .

---

(١) توطئة لرواية « الآباء والبنين »

والمرض الذي ألمّ بلغتنا أجيالا متوالية كان شللا أوقف فيها حركة الحياة وجعلها بعد عزها السابق ، جيفة تتغذى بها أقلام الزعانف المستعبدين وقرائح « النظّامين » والمقلدين . أما اليوم فقد رجعنا الى الغرب ، الذى كان بالأمس تلميذنا ، لنقتبس عنه أمثولة جعلناها حجر زاوية « نهضتنا الأدبية » وتلك الأمثولة هى أن الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان ، وأن الأدب يتوكأ على الحياة ، والحياة على الأدب ، وأنه — أعنى الأدب — واسع كالحياة ، عميق كأسرارها ، ينعكس فيها وتنعكس فيه . أدركنا — بفضل الغرب — أن نظم الشعر ممكن فى غير الغزل والنسيب ، والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة . لذلك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا أن يتعدوا هذه الحدود المقدسة . وانتقلت الينا — بفضل الغرب كذلك — الرواية ، أو ما يدعونه بالانكليزية (نوفل) وبالافرنسية (رومان) . وكنا أسبق الناس اليها ، فوجدنا فيها مجالا واسعاً لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب

بواسطة القلم ، وأدركنا أن النثر لا ينحصر فى صف الكلام المسجع ، والاكثار من الالفاظ الشاردة المدفونة فى بطون المعاجم ، وتحبير المقالات المملة فى مواضيع مبتذلة ، فقام بيننا بعض من جربوا أن يمثلوا حياتنا اليومية فى روايات وطنية .

وهذه خطوة الى الأمام .

لكن « نهضتنا الأدبية » لا تزال فى الأقمطة ، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيد اللسان ، محدود العواطف ، ضعيف العضل . وقد لا يحق لنا أن نلومها على هذا الضعف . لكننا لا نكتم أن رجاءنا بمستقبلها يضعف عند ما نراها قد أهملت باباً كبيراً من أبواب الأدب لو خيّر الغرب بينه وبين بقية الأساليب الكتابية لاختاره دونها . نحن نعنى — الدراما — الدراما رافقت الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركناً من أركانها . وأقام لها الغربى المعاهد التمثيلية (التياترو) فأصبحت هذه جزءاً من حياته اليومية كالمدرسة

والبيت والكنيسة . فى التياترو تجد نفسه الجائعة المثقلة بأتعاب العمل وهموم الحياة راحة وتعزية وقوتاً . من أوحال عيشته التى يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع روحه الى عالم تجول فيه العواطف البشرية بين جميلها وقبيحها ، وضعيفها وقويها ، وشريفها ودنيئها . يرى بعينه على المسرح بشراً مثله غائصين فى معركة الوجود يكشفون أمامه أسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد فى هذه الأسرار وبين تلك المخبآت قسما من الذات التى يدعوها « أنا » ويستعين ببعضها على اصلاح نفسه والاضافة الى خزانة اختباراته . يضم المؤلف والممثل قواهما — الأول بأفكاره والثانى بصوته وحركاته — ليخترقا حرمة انفراده الذاتى ، فيدخلان زوايا قلبه ويمسّان كل أوتاره ويفتشان بين طيات ضميره ويحركان دولاب أفكاره — وبالاجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود فيشعر أنه كائن حي وربَّ كلمة تقع في أذنه فيحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه ، أو رب حركة من يد الممثل ينتفض لها قلبه ، أو ربَّ مشهد يهزه بكليته كما

تهز العاصفة شجرة من جذورها . لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكن احداثه إلا اذا كانت الرواية مشهداً حياً من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الممثل قادراً على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الأفكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات . فلذلك يتوكأ المؤلف على الممثل ، والممثل على المؤلف . وغير خفي أن أفضل الروايات فى يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها ، وبالعكس — ان الممثل الحاذق يلبس أحياناً أبخس الروايات حلة جمال وقوة . ولذلك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين فأجزل عطاهم بالمال وأحاطهم بالشهرة في الحياة ، وطيّب ذكرهم بعد الموت .

فماذا فعلنا نحن ؟

نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى « بهلوان » والى الممثلة كعاهرة ، والى التياترو كمقصف ، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو . شعبنا لم يدرك بعد أهمية فن التمثيل فى الحياة لأنه لم ير بعد روايات تمثل أمامه مشاهد

من حياة يعرف ألفها وياءها ، لم ير بعد نفسه على المسرح . واللوم عائد على كتابنا لا على الشعب . جلّ ما قدمناه حتى الآن الى الشعب من الروايات التمثيلية ينحصر فى بعض روايات معربة أكثرها من سقط المتاع وكلها غريبة عنه ، بعيدة عن أذواقه ، قصية عن مداركه . أنا لا أشك قط في أننا سنرى عندنا : عاجلا أو آجلا ، مسرحاً وطنياً تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية ، انما يقتضى لذلك قبل كل شىء أن يحول كتابنا أنظارهم الى الحياة التى تكرّ حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجرها وبجرها ، وأفراحها وأتراحها ، وجمالها وقباحتها ، وشرها وخيرها ، وأن يجدوا فيها مواد لأقلامهم — وهى غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها.

يبشرنا الانقلاب الذى طرأ مؤخراً على آدابنا بقدوم تياترو وطنى ولو كانت العقبات فى طريقه لا تزال كثيرة . من هذه العقبات وهمٌ اجتماعىٌ لا يزال راسخاً فى عقول الكثيرين هو ان التياترو يفسد الأخلاق الطاهرة — لا سيما أخلاق البنات والنساء . رحمتك يا ربى ! ومنها فقزنا

الى الكتاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية . لكن أكبر عقبة صادفتها فى تأليف « الآباء والبنين » — وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواى — هى اللغة العامية والمقام الذى يجب أن تعطاه في مثل هذه الروايات . فى عرفي — واظن الكثيرين يوافقونى على ذلك — أن أشخاص الرواية يجب أن يخاطبونا باللغة التى تعودوا أن يعبروا بها عن عواطفهم وأفكارهم وان الكاتب الذى يحاول أن يجعل فلاحا أميا يتكلم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفات اللغوية يظلم فلاّحه ونفسه وقارئه وسامعه ، لا بل يظهر أشخاصه فى مظهر الهزل حيث لا يقصد الهزل ويقترف جرما ضد فن جماله فى تصوير الانسان حسبما نراه فى مشاهد الحياة الحقيقية . هناك أمر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية — وهو أن هذه اللغة تستتر تحت ثوبها الخشن كثيرا من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة وأمثاله واعتقاداته التى لو حاولتَ أن تؤديها بلغة فصيحة تكون كمن يترجم أشعارا وأمثالا عن لغة أعجمية . وربما خالفنا فى

ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب الصرف والنحو كلها قائلين ان « كل الصيد فى جوف الفرا » وان لا بلاغة أو فصاحة أو طلاوة فى اللغة العامية لا يستطيع الكاتب أن يأتى بمثلها بلغة فصحي . فهؤلاء ننصح أن يدرسوا حياة الشعب ولغته بامعان وتدقيق .

الرواية التمثيلية . من بين كل الأساليب الأدبية . لا تستطيع أن تستغنى عن اللغة العامية . انما « العقدة » هى أننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب أن نكتب كل رواياتنا باللغة العامية إذ ليس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية أو العصور الأسلامية الأولى ذلك يعنى انقراض لغتنا الفصحى . ونحن بعيدون عن أن نبتغى هذه المثلة القومية . فأين المخرج ؟

عبثا بحثت عن حل لهذا المشكل فهو أكبر من أن يحله عقل واحد . وجل ما توصلت اليه بعد التفكير الطويل أن أجعل المتعلمين من أشخاص روايتى — كداود والياس وزينة وشهيدة وناصيف بك — يتكلمون لغة معربة . والاميين — كأم الياس — أن تتكلم اللغة العامية . أما خليل

سماحه — وان لم يكن اميا تماما — فقد رأيت الاحرى ان أجعله يتكلم العامية لانها توافق اطباعه ومداركه . وكذلك موسى بك فى حديثه مع ام الياس وفى بعض المشاهد التى تليق بها اللغة العامية اكثر من الفصحى . لكنى اعترف باخلاص أن هذا الاسلوب لايحل « العقدة » الأساسية فالمسألة لاتزال بحاجة الى اعتناء اكبر رجال اللغة وكتابها

والمشكل الآخر الذى وقفت امامه حائراً سائلا هو ضبط كتابة اللغة العامية بطريقة تزيل الالتباس والابهام وتؤدى اللفظ المقصود . تركت أمر « اللهجة » التى تختلف كثيراً باختلاف المقاطعات والامكنه الى فطنة الممثل وحذاقته لكننى أحجمت تهيباً عن أن اضع لاجل هذه الروايات وحدها اصطلاحات لضبط الكلام العامى . ونحن بحاجه ماسة الى هذه الاصطلاحات اذا أحببنا أن نقترب من الشعب وتهذبه باقلامنا . العامة تستعمل حروفا لاوجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل (C.E.O.) الأفرنسية وتلفظ القاف فى اكثر المحلات كالهمزة . فيجب أن نضيف

الى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هـذه الحروف . انما يجب أن تـكون هذه الاصطلاحات عمومية كى لايحـدث تبلبل وتشويش حيث نقصد اتفاقا ووحدة . فمن يقوم لنا بهـذه المهمة ؟ لو كان عندنا مجلس أدبى أو شـبه اكاديمى لالقينا على عاتقه هـذا الأمر . أما ولا اكاديمى لنا فهـل تصدق الأحـلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وآدابهـ بعض ادبائنا فى الشام ومصر على تأليف هيئة دائمـة تعتنى بترقية اللغـة والمحافظة عليهـا وتـكييفها بموجب الزمان والأحوال

افضل ألاَّ اقول شيئاً عن أشخاص الرواية أو الرواية نفسـها سوى أنى حاولت أن ألج فيها طرفا محـدوداً من موضوع حيوى كبير فى حياة الأمم جمعاء . — وحياة شرقنا على الاخص — ذاك هو الخلاف الابدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القـديم والحديث . واذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض كتابنا الاوفر مقدرة منى فى معالجة

مواضيعنا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتى.

إذا شئنا أن نرفع آدابنا من المستنقعات التى تمرغ فيها فعلينا أن نسعى من الآن لوضع أساس متين للمسرح العربى بتربية أذواقنا التمثيليـة وتعزيز الرواية الوطنيـة . حتى اذا نهضنا كانت « نهضتنا » نهضة جبـار أفاق من نوم طويل لا نهضة عاجز فتح عينيه ليرى الموت أمامه.